نظريات نشأة الحضارة –الفحص التاريخي–

توينبي أنموذجا

Theories of the emergence of civilization –historical examination Toynbee as a model

يعقوب مختار

جامعة محمّد بن أحمد وهران2(الجزائر)، aboulhocen@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2022/08/09 تاريخ القبول: 2023/03/15 تاريخ النشر: 2023/03/31

ملخص:

سنقف في هذا المقال على أهم النظريات التي تفسر نشوء الحضارات ، ونستعرض أهم نظريتين حاولتا إثبات صحّة ادّعائهما في كونهما سببا مباشرا في بدء الحضارات، والانتقال من البربرية إلى التحضر، وهما نظريتي الجنس(التفوق العرقي) والبيئة ، كما سنرى أهم الاعتراضات التي وجّهها توينبي لدحض هذه الادّعاءات، وأن وراء ذاك التّحوّل العظيم في حياة الإنسان البدائي و المجتمعات الإنسانية حافزا آخر غير مادّي المنشأ جعلها تخطو خطواتها الأولى في سبيل الحضارة.

كلمات مفتاحية: حضارة، تفوق، بيئة، مجتمعات.

Abstract:

In this article, we will stand on the most important theories that explain the emergence of civilizations, and review the two most important theories that tried to prove the validity of their claim that they were a direct reason for the star of civilizations, namely the theories of racial superiority and the environment, and we will see Toynbee to refute these claims, and that behind this great transformation in the life of primitive man and human societies is another incentive other that material origin that made them take their first steps towards civilization.

Keywords: civilization, superiority, environment, societies.

مقدّمة :

عرفت الإنسانية حضارات شتى فتحت آفاقا أمام الشعوب التي فاءت إلى ظلالها و لحظات صحوة تتسم بصعود ورقي في الأفكار والمنجزات المادية منها والمعنوية، والتي ساهمت فيها تقريبا جميع الأعراق البشرية دون اختصاص جنس بعينه بمزايا التفوق عن غيره من الأجناس، و يبدو أن صعود اليمين المتطرف اليوم في أوربا المعاصرة والغرب بصفة عامة، وصنوف التعامل مع اللاجئين من أوكرانيا وما صحبه من تصريحات سياسية وإعلامية في اختلاف هؤلاء اللاجئين عن بقية اللاجئين من أنحاء العالم، دليل على أن فكرة التفوق العرقي تأبى أن تموت، تلك الفكرة التي تمتد جذورها إلى القرن 19م أين انتشر بين أوساط المثقفين والنخبة آراء تجعل الحضارات جميعها تدور في فلك المركزية الغربية؛ الحضارة الوحيدة التي إليها يرجع الفضل كله في نشأة الحضارات جميعها، وتؤكد بعد أن أدهشتها منجزاتها المادية على تفوقها وتنسب الدّونية في نفس الوقت إلى التجمعات الإثنية والأعراق الأخرى.

عاصر توينبي كل هذه الأحداث وهو المؤرّخ والفيلسوف الذي لا يمكن أن يسلّم بسخف هذه الآراء و ضعف حججها، وهو وحده يكاد يكون حجّة في أوساط المؤرخين والباحثين فانبرى يفنّد تلك الادعاءات ويكشف زيفها إضافة لنظرية البيئة التي تشترط في نشأة الحضارة حيزا مكانيا وظروفا جغرافية خاصة توفر شروطا ملائمة في بعث الحضارات، و نهدف من خلال عرض هذه الآراء و التحليل الذي سنقدمه في هذا البحث الوصول بالقارئ إلى إقامة فارق دقيق بين النظريات جميعها من خلال الإجابة عن سؤال جوهري: كيف تنشأ الحضارة؟ تترتب على هذه الإشكالية الأسئلة التالية: إلى أي مدى استطاع توينبي أن يوفّق في جعل نظريتي الجنس والبيئة لا تقومان دليلا في تفسير نشأة الحضارات؟ و ما هي أهم الاعتراضات التي وقف عليها ؟ ولماذا تجعل جميع النظريات التي تفسر التاريخ تلك المجتمعات البدائية خارج سلسلة التاريخ والحضارة؟ وهذه الأخيرة هي نقطة البدء في محاولة توينبي إماطة اللّثام عن العلاقة الوثيقة بين تلك المجتمعات البائدة والحضارات التي عرفتها البشريّة، وأنسب المناهج للإجابة عن الإشكالية وتحقيق أهداف البحث المنهج التحليلي الذي يتيح لنا إصدار أحكام بالاعتماد على تحليل النصوص الأصلية والثابتة لأرنولد توينبي وطبقنا المنهج التاريخي عندما تتبعنا مسار الأفكار عبر الحقب التاريخية .

وارتأينا تقسيم البحث إلى ثلاثة محاور كما هو مبيّن فيما يلي.

1.المجتمعات البدائية و الحضارات

لا شك أن المجتمعات التي وفدت إلى مسرح التاريخ أو بعبارة أخرى إلى طريق الحضارة استمرار لتلك المجتمعات البدائية التي تنتسب إليها، والقول بأن للحضارات أو المجتمعات التي تعرف أو عرفت أطوار الحضارة وجودا وشخصية مستقلة عن سابقاتها قد يحمل في طياته صنوفا من المغالاة والبعد عن الحقيقة، فلم و كيف وثبت إلى التاريخ هذه الحضارات ونالت من اهتمام الباحثين كل ذلك الحظّ من التّقدير والاهتمام؟ في حين لفّ الظلام والنسيان تلك العصور المتقدّمة من إنسان الكهوف والمغارات؟ ونحن نرى في هذا العصر المتقدم جدّا كيف توظّف تقنيات المسح الجيولوجي في وادي الملوك بطيبة في

مصر أو حضارة المايا في أمريكا اللاتينية ، في الوقت نفسه الذي أصبح التقاط الصور الفوتوغرافية لرسوم الإنسان الأول ونقوشه الصخرية ضرورة لازمة لحفظ تراث الإنسان الأول والذي جعل من الصّخر رسائل إلى الجيل التالي من البشرية قبل أن يعفو عليها تغير الزمان.

فهل لهذا علاقة بتاريخ اكتشاف الكتابة والزراعة؟ و هل يمكن اعتبار الأخيرتين وجودا منفصلا عن الكتابة الصخرية وإبداعا ليس للإنسان الأول أيّ دور فيه؟ إذا كان الأمر كذلك فليس هناك بأس في جعل العصور التاريخية أو الحضارة تبدأ من تاريخ اكتشاف الكتابة والخروج من مرحلة الصيد إلى مرحلة الزراعة، أمّا إذا كان العكس وهو الصّحيح في نظرنا فلم يكن الإنسان الذي حمل مشعل الحضارة ليصل إلى ما وصل إليه لولا أنّ الأجيال التي سبقته هيّأت له سلّم الارتقاء الحضاري إلى نقطة انطلق منها صعودا نحو قمّة الحضارة.

ينطلق توينبي عند تعرّضه لهذا الإشكال في جعل الحضارات أو المجتمعات التي تسير في أطوار الحضارة وهي واحد وعشرون حضارة تنقسم إلى مجموعتين :

" المجموعة الأولى: تشمل خمسة عشر مجتمعا تنتسب إلى مجتمعات سالفة من نفس النوع، و يتصل عدد قليل منها بسابقتها اتصالا وثيقا، بحيث تصبح المناقشة في مسألة توافر شخصية منفصلة لها، موضع نظر.

وتتضمن المجموعة في الطرف الآخر منها؛ بعض مجتمعات اتصالها بسابقاتها ضعيف إلى حد أن القول بانتسابها إليها، يحمل بين طيّاته الكثير من المغالاة." [1]

أما المجموعة الثانية فما تبقّى وهي ستّ مجتمعات تختلف عن الأولى من حيث أنّها لا تنتسب مثلها إلى مجتمعات من نفس النّوع، بل ترتد إلى المجتمعات البدائية مباشرة، وهي المصرية–السومرية–المينووية–الصينية–المايانية–الاندينانية، وانطلاقا منها يحاول توينبي بحث الفارق الأساسي بين المجتمعات البدائية والحضارات أو المجتمعات التي عرفت أطوار الحضارة.

وينفي بادئ الأمر أن تكون النظم الاجتماعية أساس الفارق بينهما " فما النظم إلا ناقلات العلاقات غير الشخصية بين الأفراد وهي التي تعيش فيها جميع المجتمعات، ذلك لأن المجتمعات البدائية –حتى أصغرها– تقوم على أساس أوسع من الحلقة الضيقة التي تضم الصلات المباشرة لفرد ما. و النظم هي صفات جنس المجتمعات كافة، والأخرى فإنها خواص مشتركة لنوعي هذا الجنس (أي المجتمعات البدائية والحضارات) كليهما."[2]

بل يرى ديورانت أن استعمال الألفاظ من نحو بدائي وهمجي بعيدة كل البعد عن الالتزام العلمي لأننا حين نطلق مثل هذه الألفاظ نجدها لا تعبّر عن حقيقة موضوعية، بقدر ما نعبر بها عن إعجابنا بأنفسنا وحبنا العارم لها، فإن ذلك الهمجي

[1]– توينبي أرنولد، **مختصر دراسة للتاريخ**، تر محمد فؤاد شبل،ج1، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة،2011. ص81 .

[2]– نفس المرجع، ص 82.

أو البدائي " هو أيضا متمدن بمعنى هام من معاني المدنية، لأنه يعنى بنقل تراث القبيلة إلى أبنائه – وما تراث القبيلة إلا مجموعة الأنظمة والعادات الاقتصادية والسياسية والعقلية والخلقية، التي هذّبتها أثناء جهادها في سبيل الاحتفاظ بحياتها على هذه الأرض والاستمتاع بتلك الحياة"[1].

ومن هذا الباب نجد في الحث من قبل ميثاق الأمم التحدة تحت فصل الشعوب الأصلية دعوة للحفاظ على ما تبقى من أشكال الثقافة البائدة من خلال تعزيز " وحماية تمتع الشعوب الأصلية بحقوقها وضمان هذه الحقوق بالتنسيق معها، وكذلك لضمان ممارستها لحقوق الإنسان والحريات الأساسية على أساس من المساواة وعدم التمييز والمشاركة الكاملة والحرة في جميع المجالات في المجتمع، لا سيما في المسائل التي تؤثر على مصالحها أو تخصها" [2]

ولئن كنا نعيش يوميا في دائرة هذه النظم وعلى أساسها فقد عرفت المجتمعات البدائية نظمها أيضا ، فقد كانت لديها عقائد وشعائر فيما يتعلق بالزواج ومراسم الانضمام إلى الطوائف والجماعات، إضافة إلى عقيدة الطوطمية ونظام الفصل بين الذكور والإناث عند بلوغهم سنا معينة في المضاجع.

بل يتساءل كلود ليفي شتراوس تحت عنوان الثقافات البدائية عن سر بقائها موحدة طوال مئتي ألف سنة، عن التقنيات المستعملة في تصنيع القطع المثلثة والمسطحة، وأي تحليل تقدمه لنا عصا القيادة المزعومة بين تلك الشعوب البدائية المؤلفة من عظام الرنة؟"إن كل هذه الغوامض تبرهن على وجود تشابه ما بين المجتمعات الحجرية القديمة وبعض المجتمعات الأصلية المعاصرة"[3]، ويتساءل تبعا لهذا عما يمكنه أن تفيدنا بالضرورة حول اللغة والمؤسسات الاجتماعية والمعتقدات الدينية،" ويقينا أن بعض هذه النظم من دقة إحكام الصنعة والحذق ، حتى لتبلغ مبلغ النظم التي تختص بها الحضارات، ولا تتميّز الحضارات عن المجتمعات البدائية كذلك بتقسيم العمل ، فإنّ في مكنتنا أن نعاين –على الأقلّ– مبادئ تقسيم العمل في حياة المجتمعات البدائية أيضا" [4] .

وبنظر توينبي فإن وجد اختلاف فهو يتبدّى في الاتجاه الذي يتخذه التقليد في النّظام الاجتماعي لكلا المجتمعين وأثره في الحياة الاجتماعية؛ حيث نجده في المجتمعات البدائية يعمل في اتجاه الماضي فنجد المجتمع يولي وجهه شطر الأموات أو الأسلاف، جاعلا من استشعار وجودهم قوّة تعزّز نفوذهم و تسم المجتمع بسمة تجعل من الأعراف و العادات تتحكّم

[1] – ديورانت ول، **قصة الحضارة**، تر زكي نجيب محمود، ج1، ، دار الجيل للطبع النشر والتوزيع ، بيروت– لبنان ، دط ، دت، ص9.

[2] – مجلس حقوق الإنسان– مفوضية الأمم المتحدة، منشورات إدارة شؤون الإعلام بالأمم المتحدة، نيويورك، 2003، ص40.

[3] – شتراوس كلود ليفي ، **العرق والتاريخ**، تر سليم حداد، ط4، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت،2008، ص21.

[4]– توينبي أرنولد، **مختصر دراسة للتاريخ**، مرجع سبق ذكره، ص82.

بالنظام الاجتماعي وتسيطر عليه، أما في المجتمعات المتحضرة فالتقليد يوجّه اتّجاه " الشخصيات المبدعة الذين يلزمون الناس باتباعهم، لأنهم من الطلائع ، ومن ثم ..يصبح المجتمع في حركة دافعة في طريق التغير و السمو"[1].

ويرجع الاعتقاد بوجود اختلاف دائم و أساسي بين المجتمعات البدائية والمجتمعات المتقدمة إلى اعتمادنا على الملاحظة المباشرة في البحث عن خصائص لكل منهما وتحديدها تاريخيا، ولئن استطعنا بملاحظة بسيطة تحديد المراحل التاريخية للمجتمعات المتحضرة إلى قديم و وسيط وحديث وما عرفته البشرية من تغيّرات وتحدّيات و كشوفات فإنّ نفس الملاحظة تنبئنا أنه من المستحيل أن المجتمعات البدائية كانت في حالة ثابتة ولم تعرف طوال ثلاثمائة ألف سنة وهو تاريخ وجود الإنسان على هذه الأرض حركة دافعة إلى الأمام ولم تجابهها أي مخاطر أو تحديات.

" هذه الصيغة الموجزة تعني فقط أن تاريخها مجهول وسيبقى كذلك، ولكن ذلك لا يعني أنه غير موجود، فخلال عشرات وحتى مئات ألوف السنين، ثمة كذلك أناس أحبوا وكرهوا وتألموا واخترعوا وقاتلوا، في الحقيقة لا وجود للشعوب الطفلة، كل الشعوب راشدة، حتى تلك التي لم تكتب تاريخ طفولتها وفتوتها "[2]

بل على الأرجح ربما قطعت البشرية خلال تلك الفترات والعصور ما لم يقطعه أي مجتمع متمدن حتى الآن وخلال السبعة ألاف عام الأخيرة من تاريخ الحضارة.

وربّما أو بعبارة ديورانت ومن يدري أن تلك المجتمعات " لم تترك لنا شيئا لنضيفه سوى تهذيب تلك الأسس والمقوّمات لو استثنينا فنّ الكتابة، ومن يدري فلعلّهم كانوا يوما متحضّرين ثم نفضوا عن أنفسهم تلك الحضارة لما لمسوا فيها من شقاء النفس"[3].

يضرب توينبي في تدليله على تلك الأشواط التي قطعتها تلك المجتمعات البدائية مثلا غاية في الروعة، إنه مشهد مسرحي من مسرح الحياة حيث يقف الرائي يرقب أناسا خاملين على سلسلة من الصخور، تحتهم هوّة وفوقهم أخرى (المجتمعات البدائية) وفيما استسلم هؤلاء لرقود طويل قرّر جماعة منهم المضي قدما في تسلق الجبل (الحضارات).

لكن إصدار الحكم على الفريق الأول بالشلل والخمول أليس فيه نوع من الإجحاف بحقهم ؟ أم تراهم ولدوا على تلك الصخور؟ بالطبع لا، فلا يعقل أن يكونوا قد ارتفعوا إلى المكان الذي يقفون فيه سوى بجهدهم ودون أن تكون هناك قوة خارجة عن جهد عضلاتهم و بالنسبة لتاريخ وجود الإنسان "فإن رفاقهم الصاعدين في هذه اللحظة لم يغادروا تلك الصخور نفسها إلا في التوّ؛ شارعين في تسلّق الصخور العليا...كل ما نعلمه استحالة التوقف و الاستراحة قبل بلوغ الصخور التالية أينما كانت ..على أن في مكنتنا التأكد من أن بعضهم لن يبلغوها أبدا، وفي وسعنا أن نلاحظ أن مقابل

---

[1]- نفس المرجع، ص83.

[2]- شتراوس كلود ليفي ، **العرق والتاريخ**، مرجع سبق ذكره، ص23.

[3]- ديورانت ول، **قصة الحضارة**، مرجع سبق ذكره، ص9.

كل فرد يحاول أن يتسلّق الآن في عزم ، ثمّة ضِعفُ هذا العدد(أي حضارتنا البائدة)قد سقط مرتدّا منهزما إلى الصّخور الأولى"[1].

ويعبّر جورج حنّا على عدم يقينية الدراسات المتعلقة بتاريخ المجتمعات البدائية و بالإنسان ذاته بالمعلومات التي تتكشف عنها يوميا حقول العلوم المتعلقة بالآثار و الأنثروبولوجيا والتي تثبت يوما بعد آخر أن " تاريخ الإنسان خزانة مليئة بالأسرار، المكدّس بعضها فوق بعض، فكلّما نبشتها وجدت فيها شيئا جديدا لم تجده في المرة التي سبقتها، ويزودك هذا الشيء بزاد جديد في سفرتك مع الإنسان، ويفتح لك أفقا جديدا لاستكشاف حقيقته وأسراره، ومعرفة مدى تطوّره وتقدمه "[2]، وهذا يعني أننا وخلال غوصنا في التاريخ لا نجد أنفسنا أمام حضارات ميتة، بل أمام جماعات فقدت شروط ازدهارها وارتقائها، " وكان لا بدّ من انقضاء أقل من مئة ألف سنة حتى وفق الإنسان للخروج من دور ما قبل التاريخ والوصول إلى عتبة الحضارات"[3]

يصل توينبي إلى استحالة إقامة حدّ فاصل بين المجتمعين، لكن يكون بالوقت نفسه قد اهتدى إلى أنّ بداية الحضارات كان تحوّلا من حالة الخمول إلى الحركة، إنه قانون كوني بالنسبة إلى انبعاث كلّ حضارة عرفناها إلى اليوم، و يتساءل عن العامل الإيجابي الذي قاد البشرية إلى الحركة مرة أخرى، مستعرضا بداية نظريتين يراهما ينتهيان إلى طريق مسدود.

2 نظرية التّفوق العرقي

قبل الحديث عن هذه النظرية لا بد من تحديد المصطلح؛ ماذا نعني بالعرق أو الجنس في الدراسات الفلسفية و التاريخية ، وما علاقته بنشأة الحضارة؟ ويتساءل توينبي هل في استطاعتنا أن ننسب الحضارة إلى جنس بعينه دون باقي الأجناس؟

ففي المعجم الفلسفي أن صاحب مقولة التفوق الجنسي و اللامساواة بين أفراد الإنسانية هو الكونت دي غوبينو Arthur de Gobineau في كتابه المعنون ب :فصل المقال في اللاتساوي بين الأجناس البشرية " يرى أن الجنس هو علة جميع الأحداث التاريخية، والجنس ليس مجرد خصائص فردية للمتميزين ولا هو خاص بإبداع البشرية، ذلك أن التاريخ محكوم بقانون صارم و هو أن عامل الجنس هو العامل الحاسم الذي تمليه الطبيعة أما العوامل الأخرى فهي عوامل ثانوية، وليس في إمكان إرادة الإنسان أو أي إيمان مهما يكن نبيلا أن يزيل المصير الذي تضعه الطبيعة التي تعبر عن ذاتها

[1]– توينبي أرنولد، **مختصر دراسة للتاريخ**،مرجع سابق، ص85.

[2]– حنا جورج، **قصة الإنسان**، ط6، دار العلم للملايين، بيروت، 1989، ص5 .

[3]– لوبون غوستاف، **فلسفة التاريخ**، تر عادل زعيتر، دط، دار المعارف، مصر،1954، ص226.

في الجنس"[1]، ويبدو أنه يرفض صراحة إسهام أي عامل آخر روحاني سماوي أو مادي اقتصادي في حركة التاريخ وبدء الحضارة.

لقد غيّر غوبينو التفكير الأوربي بشأن الجنس تغييرا جذريا، فهو لم يكن من السابقين إلى تأسيس هذا الفرع من المعرفة العلمية علم الأنثربولوجيا والتقسيم الثلاثي للأجناس إذ تم على يد يوهان فردريك بلومنباخ Johann Freidrich Blumenbach و جورج كوفيرGeorge Cuvier حيث رتبوا الأجناس إلى ثلاث مراتب:الأبيض أو القوقازي–الشرقي أو المغولي–الزنجي أو الحبشي، ثم بدأ الأوربيون يستخدمون هذا الاختلاف في ترتيب هرمي يحتل البيض قمته والسود يحتلون قاعدته، وينسبون للعرق الأبيض مزايا عقلية وجسمانية تفوق ما لدى نظرائهم من باقي الألوان

وهذا الافتراض بالتفوق هو أبرز الجوانب المظلمة والسيئة التي ستلقي بنتائجها على القرن العشرين فيما بعد، وهو الجديد الذي أضافه غوبينو إلى النظرية " فإن الرجل الأبيض لديه توافق أعظم بين مكونات القوة الجسدانية والذكاء والأخلاق، ومن بين كل الأجناس الموجودة يظل هو الأكثر حيوية، تلك الحيوية التي هي قوة حياة أو جوهر تنتقل إلى ذريته، وهي أساس الحضارة والإبداع الإنساني"[2] هذا التفوق مختص بالبيض الأوربيين المعاصرين ويسميهم غوبينو الآريون.

وشبيه بالتعريف السابق ما ذكره توينبي في معرض حديثه عن إمكانية اختصاص جنس معيّن بالحضارة، فالتّفوق الرّوحي والذهني يرتبط ويتّصل اتّصالا وثيقا باللون في غالبية الأحوال، بل يتعدّى إلى درجاته نقصا وزيادة في زعم هؤلاء، "فإن أكثر نظريات الحضارة العنصرية شيوعا، هي تلك النظرية التي تضع على منصة الشرف، السلالة ذات البشرة البيضاء والشعر الأصفر والعيون الشهباء والرأس الطويل التي يدعوها البعض بالإنسان النوردي، ويدعوها نيتشه بالوحش الأشقر، وحري بنا أن نبحث عن أوراق اعتماد هذا الوثن معبود أوساط التيوتونيين"[3].

إن أوراق اعتماد هذا الوثن كانت قد حُرّرت وخُتمت من قبل الكونت دي جوبينو المنوه إليه سلفا، الذي وعلى حد تعبير توينبي أضاف ردّا على هذا الهراء بهراء أسخف منه، إذ جعل حتى الأوربيين أنفسهم وبيض البشرة درجات، أنقاها الدّم النّوردي أصل كلّ نبض للحضارة ودافعها إلى الحركة، مستندا إلى الكشف الذي عاصره و مستفيدا منه في أن جميع اللّغات الأوربية الموجودة فضلا عن القديمة منها تنتسب جميعها إلى لغة أصلية آرية كانت مصدرا لاشتقاق كلّ لسان.

وهكذا استخلص خطأ أن الشّعوب النّاطقة بتلك اللغات المشتقّة من اللغة الأم تنتسب إلى بعضها بعضا بنفس درجة انتساب ألسنها إلى الشجرة الأم، وهذّب الأصل فيما بعد من الهند أوربي إلى النوردي الجرماني أعلى الأجناس وأنقاها والذي نسب إليه المسيح ودانتي !

---

[1]– مراد وهبة، **المعجم الفلسفي**، مرجع سابق، ص250.

[2]– هيرمان آرثر، **فكرة الاضمحلال في التاريخ الغربي**،مرجع سبق ذكره، ص96.

[3]– توينبي أرنولد، **مختصر دراسة للتاريخ**،مرجع سبق ذكره، ص87.

بل أكثر من هذا " تمضي تلك الفكرة قائلة بأن ذلك العنصر قد أنتج العبقرية الدينية لزرادشت و بوذا، وعبقرية اليونان الفنية، وعبقرية روما السياسية، وفي الختام نحن النبلاء، لأنه إلى هذا الجنس يرجع تقريبا فضل جميع ما حققته الحضارة البشرية من أعمال وتقدم" [1].

هذا وقد أوحت الكشوفات الجغرافية واتساع نطاق الغرب بعدها في أصقاع العالم منذ ذلك التاريخ وصولا إلى الاستعمار الحديث لأجزاء كبيرة منه إلى توكيد العامل العنصري في تاريخ صنع الحضارة، وتلك حجّة نجدها مبثوثة في رسائل أمراء الحرب وجنرالات الجيوش البربرية بحجة إخراج تلك الشعوب من البدائية إلى التحضر.

و" هذا الأنموذج الفاوستي وُلد مما يسمّى عصر النهضة الغربية ..يزعم أنه مقياس الأشياء كلّها ومركز المبادهة التاريخية الوحيد، ومبدع القيمة الوحيد ومن ثم ينكر أو يهدم جميع الثقافات اللاغربية"[2]، وساهم على توكيد هذه النظرة علم البيولوجيا، إذ الاتّصال غير الودّي بينها وبين شعوب المنطقة كان مردّه أوّلا إلى الاختلاف الثّقافي ثم ملاحظة تلك الفوارق الفيزيولوجية ما جعل البيولوجيا تصنّف الأنواع إلى أنواع بيولوجية عليا وأخرى دنيا.

وبما أن الجغرافيا، جغرافيا الحضارات كما يقول إليزيه راكلوس "منظورا إليها من فوق في علاقاتها بالإنسان، ليست شيئا آخر سوى التاريخ عبر المكان، مثلما يكون التاريخ هو الجغرافيا عبر الزمان"[3] فإن توينبي يذهب إلى جغرافيا الكلمة والآفاق التي بلغتها؛ إلى أمريكا التي عبّرت عن اقتناعها بالإنسان النّوردي من خلال تقييد الهجرة حفاظا على نقاوة الفرع النّوردي بأمريكا من الاختلاط، ثم إلى بريطانيا ومذهب الطّائفة اليهودية بها، إلى أرخبيل اليابان والإينو المشعّرين...الخ.

لكن وصولا إلى هنا سيحتكم توينبي إلى التاريخ ليكشف زيف الدعوى وبطلانها "دعونا نرى ما يمكن أن تفعله التجريبية الإنجليزية عندما نختبر التفسيرات البديلة الممكنة في ضوء الحقائق"[4] من خلال إبراز إسهام الرجل الأبيض وأجناسه الثلاث فعليّا في الحضارات؛ النوردي والألبي وجنس البحر الأبيض المتوسط.

"ساهم النورديون في أربع أو ربما في خمس: الهندية، الهلينية، الغربية، المسيحية الأرثوذكسية الروسية، وربما الحيثية، وأسهم الألبيون في سبع وربما في تسع: السومرية، الحيثية، الهلينية، الغربية، المسيحية الأرثوكسية الأصلية و الفرع الروسي

[1]– نفس المرجع، ص90 .

[2]– غارودي روجيه، **حوار الحضارات**، تر عادل العوا، ،ط4، عويدات للطباعة والنشر، بيروت–لبنان ، 1999، ص ص35-34.

[3]– نقلا عن: بريتون رولان، **جغرافيا الحضارات**، ترخليل أحمد خليل، ط1، منشورات عويدات، بيروت–لبنان ، 1993، ص13.

[4] – Arnold J. Toynbee, **Civilization on Trial**, Oxford University Press, New York ,1948, p10.

منها، والإيرانية، وربما المصرية و المينووية، وأسهم سكان البحر الأبيض في عشر:المصرية،السومرية، المينووية، السورية،الهلينية، الغربية،المسيحية الأرثوذوكسية(الأصيلة)، والإيرانية، العربية، البابلية"[1].

أما لو نظرنا إلى إسهامات الأجناس الأخرى في الحضارة فقد أسهم الجنس الأسمر في اثنتين؛ السندية والهندوكية، كما أسهم الجنس الأصفرفي ثلاث؛الصينية،الشرق الأقصى، اليابانية ، ولم يسهم الجنس الأسود في أية حضارة إلى الآن حسب توينبي.

لكن من المهم أن نشير إلى ما تتكشف اليوم عنه في الهلال الخصيب من آثار حضارة مجيدة وعظيمة؛ تسمى حضارة الفراعنة السود "وفي منطقة الخرطوم خلال العصر المسيطر الأخير حوالي(5000-8000ق.م) كان للصيادين الزنوج حضارة ميزولينية ...وقد وجد معها أقدم فخار معروف. وقد أمكن تتبع هذه الحضارة من كلا إلى بوركو في الغرب على بعد أكثر من ألف ميل(1609كم) "[2] ناهيك عن تلك الحواضر التي ألهمت الجغرافيين والسفراء؛ تومبكتو، اكسيوم...الخ.

إضافة إلى أنّ المطّلع على كتابات الحسن الوزّان وابن بطوطة ومؤرخي ممالك ماقبل الإسلام وغيرهم، والآثار العمرانية الشاهدة على تلك الحواضر يدرك أنه قامت بتلك الأصقاع البعيدة والمنقطعة عن العالم مدنيات شهيرة، وثّقها كما يقول رالف لينتون الرّحالة العرب، بل يستدرك قائلا:" وهناك قصص و أخبار غير مكتوبة يتناقلها سكان الممالك الزنجية العظيمة التي تنتشر عبر القارة جنوبي الصحراء الكبرى وهي تعود إلى تاريخ أقدم من كتابات أولئك الرحالة العرب بقرنين أو ثلاثة قرون، ولاشك بأن قوائم ملوكهم وقصص الهجرات والغزو فيها شيء كثير من الحقيقة" .[3]

و ماذا لو أدرك جوبينو و العنصريين من أمثاله اكتشافات الحفريات المعاصرة؟ لعلم يقينا بأنه لا حاجة للإيغال في احتقار الجنس الأسود الذي أثبت عالم المستحثّات البشرية البريطاني Louis Leakey (1903-1972) وعلماء الأحياء" أن جميع الأجناس الأخرى مستمدة من العرق الأسود عن طريق النسب المباشر إلى حدّ ما، وأن القارات الأخرى كانت مأهولة من إفريقيا في مراحل الإنسان المنتصب و الإنسان العاقل قبل 150000 سنة "[4]، وقد كان لطرق التأريخ الإشعاعية خاصة تلك الخاصة بأرغون البوتاسيوم أن تسهم في تقدّم العلم في علم الأحياء والأعراق البشرية وأن تخفّف من تلك الدوغمائية التي سادت منذ وقت ليس ببعيد و لا تزال آثارها باقية إلى اليوم.

---

[1]- توينبي أرنولد، **مختصر دراسة للتاريخ**،مرجع سبق ذكره، ص92

[2]- حماد حسين فهد، **موسوعة الآثار التاريخية**، ، دط، دار أسامة للنشر والتوزيع، الأردن-عمان ، 2003، ص349.

[3]- لنتون رالف، **شجرة الحضارة** ، تر أحمد فخري، ج3، دط، مكتبة الأنجلومصرية ، القاهرة ، 1961، ص09.

[4] -Diop, Cheikh Anta, **Civilisation or Barbarism**,LAWRENCE HILL BOOKS, Brooklyn,New York,1ed,1991,p 11.

وربّما كانت المدنية أو الحضارة بحسب ديورانت– فهما يردان عنده في سلسلته بنفس المعنى في كثير من الأحيان– هي التي تهيّء الجنس للريادة " فليس الجنس العظيم هو الذي يصنع المدنية بل المدنية العظيمة هي التي تخلق الشعب،لأن الظروف الجغرافية والاقتصادية تخلق ثقافته، والثقافة تخلق النمط الذي يصاغ عليه،ليست المدنية البريطانية وليدة الرجل الإنجليزي ولكنه هو صنيعتها...فلو تهيأت لجنس بشري آخر نفس الظروف المادية ، ألفيت نفس النتائج نفسها تتولد عنها"[1] .

مما تقدم فللأجناس البيضاء دور رائد في نشأة الحضارات كما رأينا، شريطة ألا نجعل ذلك قاعدة لازمة وصفة موروثة للعرق الأبيض جميعه، فثمة كثير من الشعوب البيضاء لم تسهم في أي حضارة مثل كثير من السود تماما إلى اليوم؛ فنصف الحضارات التي أتينا على ذكرها لم تكن خالصة لجنس بعينه دون الأجناس الأخرى، بما في ذلك الحضارتين اللتين يحاول أن ينسب إليها الفضل على جميع الحضارت الأخرى؛ نقصد الغربية والهلينية.

ولو اعتمدنا نفس تقسيم هؤلاء المغالين في تصنيف كل جنس إلى أقسام عدة لما خلصت حضارة واحدة من مساهمات الأجناس الأخرى في نشأتها وازدهارها، بل يتعدى انتقاد توينبي إلى " ما استقر في عرف مؤرخي الغرب من تقسيم ثلاثي للتاريخ إلى قديم ووسيط وحديث، إن هذا يعد نظيرا لجغرافي يؤلف كتابا عن جغرافية العالم ولا يتناول إلا أوربا والبحر المتوسط، فالتقسيم الثلاثي للتاريخ والتقويم الميلادي لا يعنيان شيئا بالنسبة لشعوب الحضارات الأخرى كالصين"[2] وهذا كاف للتدليل على عدم اختصاص أي جنس بعينه بصنع الحضارة والانتقال بالمجتمعات من حالة الركود إلى الحركة.

3–نظرية البيئة:

"البيئة في اللغة المنزل والحالة، وتطلق في الاصطلاح على مجموع الأشياء والظواهر المحيطة بالفرد والمؤثرة فيه، تقول البيئة الطبيعية، أو الخارجية..قال (كلود برنارد): هناك بيئتان تؤثران في الكائن الحي الأولى هي البيئة الكونية أو الخارجية، والثانية هي البيئة العضوية أو الداخلية"[3]، وهي بهذا أقرب إلى الاصطلاح الإنجليزيEnvironment منها إلى الاصطلاح الفرنسي Milieu ونعني به الوسط الذي قد يكون مرادفا للبيئة في معان كثيرة

---

[1]- ديورانت ول، **قصة الحضارة**، مرجع سبق ذكره، ص6.

[2]– صبحي أحمد محمود، **في فلسفة التاريخ**، دط، مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية، 1975، ص261.

[3]– صليبا جميل، **المعجم الفلسفي**،ج1، مرجع سابق، ص220.

* يقع بحر قزوين بين أوربا وآسيا إلى الشرق من جبال القوقاز، ويحدّه اليوم كازاخستان، تركمانستان، إيران، أذربيجان روسيا، كما يمثل البحر الأسود اليوم حدودا لكل من رومانيا،أوكرانيا، جورجيا،روسيا، بلغاريا، تركيا أما بحر أورال فنهر ينبع من جبال الأورال في روسيا ويصب في بحر قزوين(راجع: أحمد مصطفى أحمد، **الموسوعة الجغرافية**، ج2، ،ط1، دار العلوم للنشر والتوزيع، القاهرة ، 2004، الصفحات، 09– 36–39).

يستهل توينبي دراسته للنظرية بالإشارة إلى أن الجغرافيا التي انتشر فيها اليونانيون أضيق مساحة من العالم الغربي الذي نعرفه اليوم، إذ أن التجارة والاستيطان كانا سببين كافيين لليونانيين لاكتشاف تعدد الثقافات التي تحيط بهم.

غير أن العالم القديم لم يك ليميّز فوارق بدنية بين الأجناس التي كانت متقاربة إلى حدّ بعيد في الهيئة الفيزيولوجية، التي يمكن ملاحظتها مثلا بين زنوج إفريقيا والهنود الحمر، فنحن نعرف أن اليونانيين انتشروا شرقا إلى مشارف بحر قزوين وشمال البحر الأسود إلى بحر أورال*، أي إلى الأجزاء الغربية من روسيا حاليا، ومعلوم مدى تشابه الخلقة بين ساكنة هذه المناطق، إذن ولتبرير التفوق اليوناني على باقي الشعوب كان لا بد من من إيجاد عوامل أخرى تبرر الاختلاف الثقافي عبر إيجاد المسوغ البيئي المتمثل في المناخ والتربة والموقع.

يحدّثنا توينبي عن رسالة حفظت ضمن أعمال مدرسة هيبوقراط الطبية تحاول تقسيم الأجناس البشرية من منظور بيئي إلى نوع جبلي يمتاز بضخامة البنية مع ما يلزم ساكنيها من شجاعة و قدرة على الاحتمال، وساكني المناطق المنخفضة الحارة، وجوههم أقرب إلى السواد ويميلون للغضب ضخام، "أما سكان البلد غير المستوي و ذي الرياح الجارفة والمياه الغزيرة والموجود على ارتفاع كبير، فهم أقوياء البنية ويمقتون النزعة الفردية، وفي طبائعهم نوع من الجبن وسهولة الانقياد...وسنجد في غالبية الأحوال أن الجسم والخلق البشريين يتغيران وفقا لطبيعة البلد"[1]، فأي اختلاف بين المصريين ساكني النيل الأدنى ونظرائهم من اليونانيين وسكان الشمال يرجع إلى البيئة التي تؤثر بنظر الهيلنيين على الطبائع والأخلاق والنظم،" انظر إلى عقولهم الموجّهة ، حتى أولئك الذين يعدون حكماء، انظر...أيّ الأشياء يلتمسونها ويسعون إليها"[2]

هذا الحكم الذي يجعل للبيئة مثل هذا التأثير لا ريب فيه نظر ويتطلب أن نقف عنده رفقة توينبي لنقلب فيه النظر والتمحيص، مستندين في ذلك إلى الوقائع التاريخية التي لا تجعل للباحثين عن الحق شكّا في صحّة النتائج التي سيتوصل إليها توينبي، فكما نلاحظ هناك محاولة لتفسير الاختلاف الواقع بين الشعوب ودورها تاريخيا في الحضارات بربط أسبابه بالعرق والبيئة، ولئن وقفنا على الأدلة في المطلب السابق التي تدحض أفضلية لون من الألوان في التفوق الحضاري، فقد أورد توينبي ما يماثلها من البراهين التي تجعل حظ البيئة ودورها في نشأة الحضارة لا يختلف عن النظرية السابقة، إن الطباع التي سقناها سابقا عن الشعوب تجعل العلاقة بينها كعلاقة العلة بالمعلول، وهي نظرية هيلينية خالصة يمكن أن تتداعى بمجرد أن نعقد مقارنة بين بيئتين متشابهتين، فإذا ما توصلنا إلى نفس النتائج فقد أثبتت النظرية صحتها وتعميمها، وإلا نُقِضت من عراها لو وجدنا مثالا نسوقه عن بيئتين متشابهتين و طبعين مختلفين.

يسوق توينبي لعقد هذه المقارنة السهب الأوراسي و السهب الأفراسي، فالأول يمتد عبر أوربا الشرقية وصولا إلى شبه الجزيرة الابيرية، والثاني يمتد عبر القسم الجنوبي الغربي لآسيا مرورا بشمال إفريقيا، فهل هذا التشابه في التضاريس

[1]- توينبي أرنولد، **مختصر دراسة للتاريخ**،مرجع سابق، 95.

[2] - أوريليوس ماركوس، **التأملات**، تر عادل مصطفى، ط1، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2010، ص83.

الجغرافية قد أنتج مجتمعين شبيهين، لا ريب أنهما أنشآ مجتمعا بدويا نتج عن البيئة المتشابهة لكلا السهبين، بل قد نجد خصائص كثيرة مشتركة بينهما.

ولكن ماذا لو أجرينا المزيد من الاختبارات لأجزاء شبيهة أخرى من العالم؟ ستتداعى هذه المقولة بمجرد أن نولّي وجوهنا شطر العالم الجديد، فنجد أن الأجزاء الأخرى من العالم التي تتوفر فيها البيئة اللازمة لقيام مجتمعات بدوية شبيهة بمجتمعات السهب الأوراسي أو الأفراسي مثل منطقة اللانوس في فنزويلا والبمباس في الأرجنتين ومراعي أستراليا،" لم تنجب نوعا خاصا بها من المجتمعات البدوية، هذا وليست الإمكانية الكامنة في تلك المناطق موضع سؤال لأن مشروعات المجتمع الغربي قد أدركتها في عصرنا الحديث وغدت تستثمرها.. يلفت النظر أن الشعوب التي وجدها الرواد الغربيون الأوائل تشغل هذه المراعي لم تدفعها بيئتها إلى الحياة البدوية إذ لم تجد تلك الشعوب في هذه المناطق التي تصلح للحياة البدوية أي وجه لاستعمالها، أفضل من تخصيصها للصيد"[1]، ولعله يلتمس عذر لليونانيين في أنهم لم يعرفوا من السهب الأوراسي نفسه سوى ركنه الجنوبي الغربي، وغابت أجزاء فسيحة من العالم وقتئذ عن أبصارهم إلى حين.

لا يستدعي منا هذا الحكم على دعوى اليونانيين إطالة الحديث فيه بأكثر من هذا، بل سننتقل مع توينبي لنقض أساس نظرية البيئة باختبارها في المناطق المشابهة لوادي النيل الأدنى متبعين الطريقة نفسها، هل كلّ بيئة مماثلة لبيئة النيل الأدنى قامت بها حضارة مماثلة للحضارة المصرية؟ وإذا افترضنا جدلا أن مصر هبة النيل وجب علينا تعميم الحكم في البيئات المشابهة للطراز النيلي.

قد يستعجل المرء في إجابة عن سؤال كهذا بالإيجاب مستدلا بحضارة وادي الرافدين؛ دجلة والفرات، ولكن ماذا لو أجرينا مزيدا من الاختبارات عن بيئات مماثلة، وهنا لا تلبث أن تنهار النظرية بمجرد أن نضعها تحت الفحص في وادي الأردن مثلا، أو ريوجراندي[2] وكلورادو بأمريكا "بيد أن نهر كلورادو لم يسرّ بهذا السحر إلى شعوب لم تكن من مريديه، و إن كانت قد تعلمته في مكان آخر. ومتى ثبت ذلك، لا يمكن اعتبار البيئة العامل الإيجابي الذي جلب الحضارات النهرية إلى الوجود، وسنستوثق من هذه النتيجة إذا ألقينا نظرة على بعض البيئات الأخرى التي أنتجت حضارات في منطقة, ولم توح بها في أخرى"[3] .

ومن المنطقي أن يقول أحدهم بعد اقتناعه بهذه البراهين التاريخية في ثقة شديدة ربما لم تكن البيئة النهرية شرطا في جلب الحضارة إلى الوافدين على ضفافها دائما، والدليل على هذا نهر الأمازون الذي لم يعرف حضارة على الإطلاق.

---

[1]– توينبي أرنولد، **مختصر دراسة للتاريخ**، مرجع سبق ذكره، ص96.

[2]–من أطول الأنهار في أمريكا الشمالية حيث يتدفق لمسافة تفوق 3034كم جنوب غربي الولايات المتحدة (انظر: أحمد مصطفى أحمد، **الموسوعة الجغرافية**، ج2، دار العلوم للنشر والتوزيع، ط1، 2004، ص17.)

[3] – توينبي أرنولد، **مختصر دراسة للتاريخ**،ج1، ص90.

بل على العكس ينتفي القول باعتبار البيئة عاملا إيجابيا في نشأة الحضارات إذا ألقينا نظرة على حضارات المايا في ميسوأمريكا أو أمريكا الوسطى فقد كان مبعثها إلى الوجود أول مرة على هضبة مرتفعة و" غالبا ما تسمى بالأراضي المرتفعة الجنوبية "[1]، وإذا نظرنا إلى الشطر الثاني من الكرة الأرضية المقابل لتلك المنطقة على طول خط الاستواء نجد هضبة كليمنجارو بتنزانيا والتي لم تعرف حضارة إلى اليوم، ولم يعرف حوض نهر الكونغو الأغنى بالموارد الطبيعية حضارة مماثلة بالرغم من تشابه البيئتين، ولا زالت قبائل الماساي تستهوي السياح الذين يرتحلون من أصقاع العالم ليأخذوا صورة تذكارية عن إنسان ما قبل الحضارة، إذ لا تزال تعتمد في تحصيل أقواتها في غالب الأحيان على القنص والصيد.

"وتذكر الحضارة الصينية في بعض الأحيان على أنها سليلة النهر الأصفر، لأنه اتفق نشوؤها في وادي النهر الأصفر. بيد أن حوض نهر الدانوب مع مشابهته العظيمة لذلك الوادي في أحوال المناخ والتربة والسهل والجبل، قد أخفق في إنجاب حضارة كالحضارة الصينية، ولقد انبعثت الحضارة المايانية وسط الأمطار والأحراش المدارية في جواتيمالا وهندوراس البريطانية، لكن مثل هذه الحضارات لم تبرز من خلال نفس الظروف الوحشية في الأمازون والكونغو"[2].

وبعد استعراض هذه الدلائل جميعها يسهل الحكم باستحالة أن تكون البيئة منفردة هي التي أيقظت الإنسان البدائي وجعلته يتجشّم المخاطر من أجل أن يعتلي ركب الحضارة ويسعى وراءها، بل نستطيع القول في ثقة وجزم أن وراء ذاك التحول العظيم في حياة الإنسان البدائي حافز آخر غير مادي المنشأ جعله يخطو خطواته الأولى في سبيل الحضارة.

4. خاتمة:

ربما نكون قد تعمّدنا تضمين نتائج البحث في محتوى المقال ذاته لإفساح المجال في هذه الخاتمة للعامل الذي رآه توينبي يهيّء لنا أدلّة جديدة و يعتدّ به في بدء الحضارات، وهو التفاعل بين التحدي والاستجابة، وليس ثمة شيء آخر لكن التزاما منا بمنهجية المجلة نشير إلى أهم النتائج التي توصلنا إليها.

- حاولنا قبل قليل أن نقف على العامل الذي يستحث المجتمعات لدخول ركب الحضارة، واستعرضنا أهم نظريتين حاولتا دون جدوى إثبات صحة ادعائهما في كونهما سببا مباشرا في بدء الحضارات وهما نظريتا الجنس والبيئة
- توصلنا أثناء عرضنا لكرونولوجيا الحضارات إلى أنه مع التسليم جدلا للجنس الأبيض بدور رائد في نشأة الحضارات فإن ذلك لا يسيغ تعميم الحكم على العرق الأبيض جميعه، فثمة كثير من الشعوب البيضاء لم تسهم في أي حضارة مثل كثير من السود تماما إلى اليوم.
- نصف الحضارات التي أتينا على ذكرها لم تكن خالصة لجنس بعينه دون الأجناس الأخرى، بما في ذلك الحضارتين اللتين يحاول دعاة التفوق العرقي أن ينسبوا إليهما الفضل على جميع الحضارات الأخرى؛ نقصد الغربية و الهلينية.

[1] – حماد حسين فهد، **موسوعة الآثار التاريخية**، مرجع سابق، ص595 .

[2] – توينبي أرنولد، **مختصر دراسة للتاريخ**،ج1، مرجع سابق،ص99.

– لو اعتمدنا نفس تقسيم هؤلاء المغالين في تصنيف كل جنس إلى أقسام عدة لما خلُصت حضارة واحدة من مساهمات الأجناس الأخرى في نشأتها وازدهارها، وهذا كاف للتدليل على عدم اختصاص أي جنس بعينه بصنع الحضارة والانتقال بالمجتمعات من حالة الركود إلى الحركة.

– لا يمكن اعتبار البيئة سببا مباشرا في نشأة الحضارات خصوصا أن الحضارات العريقة لم تقم كلها على ضفاف الأنهار بل هناك حضارات كحضارات سوريا قامت في صحراء قاحلة ومناطق جرداء، كما لا يمكن اعتبار البيئة النهرية دائما السبب المباشر في قيام حضارات كحضارة مصر فقولنا مصر هبة النيل كلام غير مؤسس لوجود بيئات مشابهة لحضارة النيل وأغنى منها لكن لم تشهد ضفافها قيام أي حضارة على مر التاريخ كحوضي الكونغو والدانوب.

– بعد انتفاء أن يكون السبب وراء بدء الحضارات ماديا فالعامل بنظر توينبي الذي كان أعظم تأثيرا في تفسير نشوئها سيكولوجي في طبيعته إنه عامل التحدي والاستجابة.

– التحدي والاستجابة :Challenge and Response

يعتبر أبرز مفهوم تدور حوله فلسفة الحضارة عند توينبي وأصل التسمية الين واليانغ Ying and Yong وهما مفهومان أساسيان من مفاهيم الفلسفة الصينية، يعبّران عن الثّنائية في الكون ، وفي الطّبيعة عن الذّكورة والأنوثة،

- التغير هو السمة البارزة في الين واليانغ ، تغيّر من النّقيض إلى النّقيض، من الرّكود إلى الحركة مثلا ، ومن الخمول إلى النشاط ، المهم أن أصل المفهوم في موطنه يحيل إلى التّغير، فاستلهم توينبي هذا المفهوم ليطبقه على وحدة الدراسة التاريخية عنده ألا وهي الحضارة، حيث لم يجعل نشوء الحضارة وبداياتها مشروطا بلون أو بيئة أو جنس معين، كما لا نستطيع أن نقف كما رأينا في المحور الأول عند نقطة نجعلها مؤشرا ومعلما فاصلا بين المجتمعات البدائية والحضارات، غير أن قانون الين واليانغ ؛الصيرورة والتغير ينبّهنا إلى خطأ تلك الملاحظة المباشرة، لأنها تقوم على ملاحظة المراحل الأخيرة من تواريخ المجتمعات البدائية وتخدعنا عن الدلائل التي تنبئنا أنه كان ثمّة مراحل أسبق في تواريخ المجتمعات البدائية، كانت هذه المجتمعات تتحرّك خلالها حركة دافعة تفوق كل حركة قام بها أيّ مجتمع متمدين حتى الآن.
- عامل التحدي والاستجابة كان وراء التحول الإنساني من مرحلة الصيد إلى الزراعة، فقد استحالت المراعي الخصيبة المشرفة على ضفتي النيل ودجلة والفرات في عصر التصحر إلى صحراء، عندئذ و أمام تحدي الجفاف خاض هؤلاء الأبطال الرواد مستنقعات الأدغال الموجودة في قرارة الوادي والتي لم يسبق لبشر التوغل فيها، وهناك بذلك الموطن الغريب والموحش بدأت أعظم حضارتين في العالم القديم مغامراتهما الكبرى بمواجهة تحديين؛ الأول حال النشأة متمثلا في التحدي الطبيعي والثاني بعد تشييد بنيان الدولة متمثلا في التحدي الخارجي البشري.

وكذلك عجلة التّاريخ لا نستطيع أن نتصوّرها متوقّفة عن الحركة، بل هي في جميع الأحوال تتابع صعودها، فيما الحضارات وعلى إيقاع **الين والينغ** أو التحدي والاستجابة ترتقي وتزدهر حينما يواجهها تحدّ يستحثّ هممها فتستجيب له استجابة ناجحة، وإما تنهار وتندثر حين يعجزها التّحدّي عن المواجهة، فتستريح في هدوء زائف ترقب غروب شمسها بعد توقّف سيرها.

5. قائمةالمراجع:

1أحمد مصطفى أحمد، **الموسوعة الجغرافية**، ج2، ،ط1، دار العلوم للنشر والتوزيع، القاهرة ، 2004.

2- أوريليوس ماركوس، **التأملات**، تر عادل مصطفى، ط1، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2010 3- بريتون رولان، **جغرافيا الحضارات**، ترجمة خليل أحمد خليل، ط1، منشورات عويدات، بيروت-لبنان ، 1993.

4- توينبي أرنولد، **مختصر دراسة للتاريخ**، ترجمة محمد فؤاد شبل،ج1، دط، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة،2011.

5- حماد حسين فهد، **موسوعة الآثار التاريخية**، دط، دار أسامة للنشر والتوزيع، الأردن-عمان ، 2003.

5- حنا جورج، **قصة الإنسان**، ط6، دار العلم للملايين، بيروت 1985 .

6- ديورانت ول، **قصة الحضارة**، ترجمة زكي نجيب محمود، ج1، دط، دار الجيل للطبع والنشر والتوزيع، بيروت- لبنان، دت.

7-شتراوس كلود ليفي ، **العرق والتاريخ**، تر سليم حداد، ط4، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت،2008.

8- صبحي أحمد محمود، **في فلسفة التاريخ**، دط، مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية1975.

9-صليبا جميل، **المعجم الفلسفي**،ج1، دط، دار الكتاب اللبناني، 1982.

10- غارودي روجيه، **حوار الحضارات**، ترجمة عادل العوا،،ط4،عويدات للطباعة والنشر، بيروت-لبنان ، 1995.

11- لنتون رالف، **شجرة الحضارة** ، تر جمة أحمد فخري، ج3، دط، مكتبة الأنجلومصرية ، القاهرة 1961.

12- لوبون غوستاف، **فلسفة التاريخ**، تر عادل زعيتر، دط، دار المعارف، مصر،1954.

13- مجلس حقوق الإنسان- مفوضية الأمم المتحدة، منشورات إدارة شؤون الإعلام بالأمم المتحدة، نيويورك، 2003

14- مراد وهبة، **المعجم الفلسفي**، دط، دار قباء للطباعة والنشر، القاهرة،2007.

15-هيرمان آرثر، **فكرة الاضمحلال في التاريخ الغربي**، ترجمة طلعت الشايب، ط1، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، 2000 .

16-Arnold J. Toynbee, **Civilization on Trial**, Oxford University Press, New York ,1948.

17-Diop, Cheikh Anta, **Civilisation or Barbarism**, 1ed, LAWRENCE HILL BOOKS, Brooklyn,New York, 1991.